# خطاب رئيس الجمهورية
# في إفتتاح المؤتمر الدولي العاشر
# للحوار فيما بين الثقافات
# قصر الأمم : 02-06 ماي 2005

*رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة*

# بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على اشرف المرسلين وعلى آله وصحبه الى يوم الدين

**أصحاب الدولة والمعالي والسعادة.**

**حضرات السيدات والسادة.**

إن الجزائر لسعيدة باحتضان هذا المؤتمر العاشر للجمعية الدولية للبحث في البينية الثقافية المنظم بالتعاون مع جامعة الجزائر يوسف بن خدة .

ويسرني، باسم الشعب الجزائري وأصالة عن نفسي أن أرحب بجميع السيدات والسادة الباحثين الوافدين من جميع القارات وكذا بزملائهم الذين قدموا من كل أنحاء البلاد، فأهلا وسهلا بضيوفنا بأرض الجزائر، هذه الأرض حيث انصهر مجتمعها، مثل جميع مجتمعات المعمورة وإنما أكثر من العديد منها انصهارا في بوتقة التبادل الثقافي أخذا وعطاء ، وذلك قبل آلاف السنين.

بأرضنا المغاربية هذه حلت الشعوب من حول المتوسط ، وكذا من الصحراء ومن أقاصي افريقيا ، حلت للمتاجرة والحوار والغزو ، ومن أرضنا المغاربية هذه انتشرت الشعوب الأمازيغية وتحلقت من حول المتوسط، وجعلت من الصحراء جسرا واصلا بين الفضاء المتوسطي وأعماق إفريقياوبلاد أسيا النائية.

وفي أرضنا المغاربية هذه تقرر مصير قرطاج الامبراطورية البحرية التي هزمتها

روما لتبسط سلطانها على ضفتي المتوسط قرونا وقرونا ، ومن أرضنا المغاربية هذه ، ما انفك منذ أكثر من ألف سنة ، الضغط التنافذي بين الحضارة المسيحية التي أضحت تدريجيا غربية، إعتبارا من القرن الثامن عشر، والحضارة الإسلامية ومن أرضنا المغاربية هذه نزحت الشعوب التي حولت شبه الجزيرة الإيبيرية الى الأندلس الفاتنة ، ذلكم المثل الأعلى في التزاوج الودي بين الثقافات الذي اثمر دينيا وفلسفيا وأدبيا وموسيقيا وعلميا وتكنولوجيا ، من ارضنا المغاربية هذه خرجت قبيلة كتامة الصغيرة لتؤسس الدولة الفاطمية العظيمة بالقاهرة.

وغير بعيد من عهدنا ، أي في القرن التاسع عشر كانت أرض الجزائر موطأ القدم حيث جربت الدول الأوروبية بسط سيطرتها الاستعمارية قبل أن تمتد بها الى بقية ربوع المغرب العربي وما وراء الصحراء ، ثم الى المشرق العربي ، والمسار هذا قد أدى في كل مكان ، ولربما في بلادي أكثر من غيرها نظرا لغزارة الفعل الاستعماري وما أحدثه من مقاومات للاحتلال ، أدى الى فسخ ثقافي شامل والى تلقين ثقافي جزئي ومكبوح ذاتيـــا وأكثر من قرن بعد ذلك ، جاءت الثورة الجزائرية المباركة التي خاضها الشعب الجزائـــري في أول نوفمبر 1954 ، لتحول أرض الجزائر الى جبهة أمامية في معركة تصفية الاستعمار من المغرب العربي ومن القارة الإفريقية قاطبة .

وبعيدا عن أن تكون هذه الحرب حربا " ثقافية النزعة " بين الشعب الجزائري المسلم العربي الأمزيغي والشعب الفرنسي من حيث هو شعب مسيحي أوروبي غربي ، إن حرب تحريرنا الوطني دارت رحاها في جو من البينية الثقافية الإيجابية أسهم أيما إسهام في اكسابها ذلكم الصيت الذي كان صيتها وتلكم المثالية التي

كانت مثاليتها عبر المعمورة برمتها ، ولا ريب أن الجموع من بنات نوفمبر 1954 وأبنائه كانوا يجاهدون باسم الإسلام وباسم وطنهم الأمازيغي العربي ، ولكنهم كانوا يجاهدون كذلك باسم قيم الإستقلال الوطني وحرية الشعوب ، القيم التي نشأت في الفضاء الثلاثي ، الفضاء الأوروبي الأمريكي السوفياتي للفكر الغربي ، هذا الفكر الذي روج له الاستعمار من حيث يشعر أولا يشعر ، والقيم هذه تلقفها رواد الحركة الوطنية الجزائرية من مثل الحاج مصالي وفرحات عباس والشيخ عبد الحميد بن باديس ، كل بطريقته ، وصوبوها في وجه الكيان الاستعماري ، وأنشأوا بذلك فضاء وطني الترعة مصبوغا بالبينية الثقافية .

وبطبيعة الحال ، كان أغلب من توطن في ذلكم الفضاء الوطني الترعة من الجزائريين المسلمين ، ولكن لم يكونوا وحدهم، ذلك أن هذا الفضاء الجزائري الوطني الترعة المتفتح على الغير كان البوتقة التي انصهر فيها بأوار حرب التحرير، لمدة متفاوتة الطول ، وإلى الأبد بالنسبة للبعض، ما جادت به همم مسيحيين من مثل اندريه ماندوز André Mandouze والأسقف دوفال Duval ، وبيارشوليت Pierre Chaulet ، وما جادت به همم يهود من مثل دانيال تيمسيت Daniel Timist ومريم بان Myriem Ben ، وما جادت به همم المتمذهبين بمذهب الأنسية من مثل فرانسيس جونسون Francis Jeanson وآنا غريكي Anna Greki وما جادت به همم مناضلين عالميين من مثل جاك فرجيسJacques Verges وجاكلين قروج Jacqeline Guerroudj وفرناند إفوتون Fenand Yveton ولا أنسى ذلكم النبراس الذي فتح انسية جديدة وأنار الطريق اليها ، وأعني به المناضل الكبير في سبيل استقلال الجزائر والمفكر الملتزم بقضيتها ، الذي جاء من

جزر الأنتيل Antilles البعيدة ، أي أخانا في السلاح ورفيقنا في أحلام اليقظة ، فرانتز عمر فانون Frantz Omar Fanon .

**حضرات السيدات والسادة .**

لا بد أن نتحاشى الوقوع في تصور ساذج وملائكي أكثر من اللزوم للبينية الثقافية، لذا ينبغي أن نقف عند بعض الملاحظات الأولية ذات الطابع التاريخي ذلك أنه يبدو لي من الأسمية بمكان ، من وجهة نظري السياسية أن نميز تمييزا واضحا بين بعض مدلولات مفهوم البينية الثقافية، هذا المفهوم غير المستقر دلاليا.

وإذا بدأنا بالمدلول الانثروبولوجي ، فإنه من البديهي أن البينية الثقافية هي طبع الإنسان وأنها هي التي تحدد وحدة الجنس البشري المتميزة ، ذلك أن كل المجتمعات البشرية تعرف بإستعمال لغات كلها قابلة للترجمة فيما بينها ، ولكن يتفرد كـــل منهـــا بعبقريته الخاصة.

كل المجتمعات البشرية تنتج تكنولوجيات لاستعمال وتحويل المحيط المعدني والنباتي والحيواني ، تكنولوجيات يمكن نقلها بالتعليم أو بالإقتباس حتى وإن يحصل في وقت أو آخر في مجال أو آخر ، تميز مجتمع أو مجموعة من مجتمعات بقدرة على الإبداع والإبتكار التكنولوجي.

فكل المجتمعات البشرية تفرز ، انطلاقا من بنية لغاتها ، وعلى قدر المستوى الذي بلغته تكنولوجياتها ، تصورات رمزية وعملية لعلاقاتها مع الطبيعة وكذا للعلاقات فيما بين البشر ، ولا سيما لتلك التي تجري بين الرجال والنساء ولكيفية تشجيعها ، إن هذه التصورات تشكل الرحم الذي يحبل بمختلف

الثقافات التي فضلا على ما تكون عليه من عمق إنساني تكون دائما وأبدا متفتحة على غيرها ، والحقيقة أنه لن يكون معنى للبينية الثقافية إن هي أريد لها أن تؤدي الى عالمية ثقافية تلغي الثقافات بتعميم التهجين الثقافي.

وفي المقام الثاني ، أي من الجانب الخلاقيaxiologique ، لا جدال في أنني أشاطر الوجه الأنسي المتمضن في موضوع ملتقاكم المتمثل في " تقاسم الثقافات وتقاسم المعارف"، وثقوا أني سأولي غاية الإهتمام للكيفية أو الكيفيات التي ستقترحونها عند نهاية أعمالكم للتعامل النظري والتطبيقي مع هذا التقاسم .

والآن ، دعوني أفضي لكم بانشغالاتي ، بل بتخوفي ، رغم أنني متشبع من حيث أنني مسلم ، بالثقة في رحمة الله ، مؤمن معتصم بحبل الرجاء.

إن وضع تقاسم الثقافات وتقاسم المعارف على صعيد واحد يطرح عدة تساؤلات، وفي هذا المقام، لن أتعرض سوى لتساؤلين منها ، تساؤل عن الصلة بين الثقافات والمعارف وتساؤل عن مفهوم التقاسم في حد ذاته.

ليس من المؤكد أن الثقافات والمعارف العلمية والتكنولوجية، حتى وإن كان لا ريب في الترابط بينها، تنتسب الى نفس المقام في تجسد الإنتماء البشري في الفضاء المكاني الزمني في هذا العالم، ذلك أن المعارف تدخل في صنف ما يمكن تقديره وقياسه، صنف ما هو دقيق، صنف العقلانية المعرفية والبرهان التجريبي والنجاعة التقنية ، أما الثقافات فهي تنتسب لما هو نوعي وعاطفي وخرافي ومقدس من حيث هي انتاج للحدود التي تحكم سلوك البشر وايمان بوجود أخروي من وراء الوجود المحسوس الدنيوي ، فإذا كانت المعارف العلمية والتقنية تبدو ، عبر الزمن الطويل الذي استغرقه تاريخ البشرية ، قابلة للتراكم

وللتعميم العالمي بقطع النظر عن المواطن الحضارية حيث تم انتاجها ، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للثقافات التي تتطور بفضل الابتكارات العلمية التقنية المحلية أو الخارجية لتبقى حية ولكنها تظل متمسكة بالبنية المرنة المتينة لما يمكن أن نعده على غرار ميشال فوكو Michel Foucault ، مبحثا لها ، وإلا كان مآلها الاضمحلال والزوال.

إن زمن الثقافات ليس زمن المعارف ، إن زمن المعارف يتمفصل بتجاوز لامحدد لحدود الإستكشاف العلمي والتقني للعالم ، بيد أن زمن الثقافات يتمفصل حول كيفيات الإستيعاب السياقي لما يقبس من الثقافات الأخرى وما يحقق من الإبتكارات داخل الثقافات ، إن زمن المعارف هو زمن اللامحدود في حين أن زمن الثقافات هو زمن زحزحة الحدود في الوقت بالذات الذي يعاد فيه تأكيدها.

يفهم من ذلك أن تقاسم الثقافات وتقاسم المعارف يقتضيان مسارين مختلفين تمام الاختلاف.ولا يمت منهما بصلة الى الأنسية الحقة إلا الثاني منهما الرامي الى شمل شعوب المعمورة كافة بالتعميم الأقصى للنتائج التقنية العلمية المحينة انطلاقا من المصدر الغربي الذي ما انفك، منذ ثلاثة قرون، يشكل المنبع الرئيسي للابداع والإبتكار في مجال العلوم والتقنيات.

إن الأول ، ما عدا عندما يعني تفهما دقيقا وتفهما يحسب للغيرية الثقافية حسابها، إنه لا يخفى إلا قليلا، وراء سراب التهجين الثقافي المعمم الذي هو نفي حتى لمفهوم الثقافات، مسارا لتأحيد المعمورة ثقافيا وفقا لمعايير ما يجب أن نكف عن تسميته بالغربي، وأن نسميه النزعة الغربية والذي يحصر الغيرية الثقافية

في مجرد المحاكاة والتظاهر الفكلوري.

إن فكرة التقاسم بالذات ، وإن كانت رائقة أخاذة ، تمت بالصلة ، الى حد ما، الى ضرب من الملائكية العالمية التي قلما ظهرت الى الوجود عبر التاريخ والتي لا محل لها من الإعراب في عالم اليوم إلا من باب استثناء ، فقد يكون أكثر صوابا، إن نحن توجهنا نحو أنسية فاعلة ترمي الى علمنة الجنس البشري على جزئيتها وقصورها ، أن نتحدث ، بشأن الثقافات عن الحوار، وبشأن المعارف عن التعميم الميسر لما سبق وأن أنتج في مختلف أصقاع المعمورة ، وعلى الخصوص في منطقة المتوسط في عدة عصور من التاريخ البشري والذي بات يتعذر تكراره.

**حضرات السيدات والسادة .**

قبل حين أفضيت اليكم بتخوفي، علي الآن أن أدقق ما قصدت اليه، وأبدأ بالقول إن تخوفي لا يأتي من عدم تكافؤ مجتمعات المعمورة من حيث التنمية ولا يأتي حتى من النزاعات، بل الحروب أحيانا، التي تعتور العلاقات فيما بين هذه المجتمعات، إنني وإن كنت من دعاة السلام والتقدم، لا أنسى أن عدم التكافؤ التنموي والنزاعات تشكل كذلك ثوابت للكينونة البشرية التي لا تمنع وجود بنية ثقافية إيجابية حتى وإن شابتها الهيمنة على الأقل بالنسبة لبعض المجموعات وبعض الأفراد التاريخية في المغرب العربين تميز التاريخ القديم بالغطرسة الرومانية وهيمنتها على معظم الشعوب الأمازيغية التي نبذت خارج الحدود أو استرقت أو سخرت بلامقابل أو تكاد ، ولكنه تميز كذلك ببروز نخبة ثقافية بينية ، النخبة التي ستعطي للعالم المتوسطي والعالم كله أحد أكبر وأغزر مفكري المسيحية ـــ

وأعني به أوغستين Augustin وتعطي أبوليوس المدوروشي Apulée de Madaure صاحب قصة " الحمارالذهبي " التي اخترع بها الجنس الروائي ، ولما استتب الأمر للإسلام في المغرب العربي ما كان للمقدمة أن يؤلفها صاحبها العبقري ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي مبتكرا بذلك علما جديدا، ألا وهو علم الإجتماع، لو لم يكن هذا العالم فاعـــلا مرموقا في البينية الثقافية التي كان يطبعها النزاع في عصره، بالحوار أولا مع بطرس الطاغية Pierre le Cruel الذي كان واحدا من قادة حرب الإسترداد Reconquista في اشبيلية، وبعده بدمشق مع تيمورلنكTamerlan الفاتح المغولي.

إن احتلال الدولة الاستعمارية لبلادي ، لم يمنع ، على ما كان عليه من عنف وشراسة، أن يحصل ، ولو على الهامش ، حوار حقيقي بين الثقافات كما شهد على ذلك أعلام من مثل حمدان خوجة والأمير عبد القادر والجنرال دوماس General Daumas وإيزابيل إيبارهارد Isabelle Eberhardt وسليمان بن ابراهيم باعـــمر وايتيان نصر الدين ديني Etienne Nasreddine Dinet ومالك بن نبي و جيرمان تيليون Germaine Tillonوجاك بيرك Jacques Berque ، على سبيل المثال لا الحصر.

إن تخوفي يأتي من كوني أشعر وكأن سلسلة همزات الوصل ، من الرجال والنساء بين ضفتي المتوسط ، تهدد بالانقطاع ، ومن كون الضفة الشمالية أصبحت لا تنتج شخصيات تاريخية حاملة حملا صريحا سخيا للبينية الثقافية ، في حين أن ما تبقى من أصوات في المغرب العربي ،ولا سيما صوت كل من فاطمة المرنيسي ومحمد الطالبي، لا يجد أذانا صاغية ولا يثير أي نقاش خصب لا في

هذه الضفة ولا في تلك ، ولا بين الاثنتين.

فللوهلة الأولى يبدو الراهن وكأنه مفارقة ويبعث على التشاؤم ، والحقيقة أنه لم يشهد عميم التقنيات والعلوم ما يشهده الآن من الصعوبات بسبب تكلفتها الباهضة وبسبب البخل المنهجي الذي يحول دون تقاسم الإبداعات الحديثة رغم المجهود الباهر الذي بذلته البلدان المغاربية في مجال التكوين منذ الإستقلال ، ولا سيما منها بلادي التي ارتفع فيها عدد الطلبة ارتفاعا مذهلا ، في أقل من نصف قرن ، إذ انتقل من أقل من 1000 عام 1962 الى أكثر من 700.000 طالب عند الدخول الجامعي في سنتنا هـذه ، وكـذا الإمكانيـات المدهشـة التي توفرها التكنولوجيات الجديدة للإعلام والإتصال لم يشهد الحوار بين الثقافات، رغم بعض التقدم على الصعيد الديني بين الإسلام والمسيحية مثلما يشهده من تشويش بفعل نزعة الشمال المتبجحة أو المتسترة الى فرض هيمنته العالمية ونزعة الجنوب الى التقوقع الممزوج بالمحاكاة واستهلاك منتوجات صناعات الشمال الثقافية.

لم يسبق أن كانت حركة البشر بين ضفتي المتوسط ، ذلك الشريان الجوهري لتغذية البينية الثقافية،على ما هي عليه من تخييب الأمل إلا بعد أن أقيم فضاء شينغن Schengen الذي جعل من المتوسط الغربي خطا حدوديا ممنوع تخطيه.

لقد انسد اليوم أفق بينية ثقافية إيجابية بفعل دعاة " تحديث الإسلام " الذين يتجاوب معهم في كنف السذاجة والضبابية دعاة " أسلمة الحداثة " في حين أن المجتمعات المغاربية ، وبخاصة منها المجتمع الجزائري، يهددها خطر حقيقي،خطر التعرض لغربنة بلا عصرنة ،خطر التعرض لمصير الهنود الحمر indienisation

المصير الذي عرفت هذه المجتمعات كيف تتجنبه وهي تحت الوطأة الاستعمارية.

**حضرات السيدات والسادة .**

لست من دعاة التشاؤم. إن المكروه ،وإن كان محتملا على الدوام ليس مؤكدا وقوعه، إن مجال الممكنات، إن كان ضيقا، لا زال مفتوحا ومجرد وجودكم في عاصمة الجزائر فيه مدعاة للتفاؤل والإستبشار ، إني متيقن فيما يخصني ، من وجود مخارج مستقبلية أخرى من غير التجمد التغاربي لبشرية تجرد نهائيا من كل نزعة الى المعقول لتركها فريسة لشمولية منطق الاجراءات ، ومن غير التمحيص الذي يأتي من تمثقف مناهض للغرب الذي بقدر ما يسعى وراء المعقول يؤدي به سعيه المحموم الى تبني "الهويات القاتلة"كما يسميها أمين معلوف.

كلا إني متيقن من أن البشرية محكوما عليها بالتأحيد بواسطة ديمقراطية السوق الأثيرة لدى فوكوياما Fukuyama ، ولا بتصادم الحضارت الذي تنبأ به هونتينغتـــون Huntington ، أجل ، إنني متيقـــن من أن البشرية ستتمكن من اجتناب هذين المصيرين البئيسين ,إن وثبة الحياة L'eros de freud ستتغلب على نزوة الموت thanatos.

لا بد من الاعتراف بأن المسلك إلى هناك مسلك ضيق ، لا يتأتى عبوره إلا مقابل إعادة تأسيس وحدة الجنس المتنوعة تأسيسا يأخذ في الحسبان تحولات فضاء الزمن التي تميز المرحلة الثالثة من العولمة التي انطلقت قبل ثلاثين سنة ، إن ما يجري تحت أنظارنا التي لا زالت ، إذ هي مشدودة الى الماضي القريب أو البعيد مشغولة عن بزوغ المستقبل. إنما هو اعادة بناء حقيقية للبنية الحضارية

للمعمورة ، انما هو ثورة أنثروبولوجية حقيقية لا يمكن مقارنتها إلا باختراع الزراعة والكتابة ، قبل الاف السنين في بلاد الرافدين ، إن هذه البنية الحضارية الجديدة لا تنتج لوحدها ثقافة بالمعني الصحيح ، ولكنه لا يمكن لأية ثقافة أو أية حضارة أن تدوم من دون هذه البنية الجديدة ومن دون إعادة تكييف مرجعياتها الأصلية.

ومن الممكن أن يكون عدم التساوق الراهن بين منطق الإجراءات ومطلب المعقول، أمرا مؤقتا أو أزمة ناتجة عن ضرورة تعميم البينية الحضارية التي اخترعها الغرب على سائر البشرية، أزمة إعادة تكييف الثقافات والحضارات والمساوقة بينها ، أزمة إيجاد ثقافات جديدة في العالم الغربي على الأخص.

من ثمة، سيتم تجاوز التجميد التغاربي والتثاقف القيامي ، وقد تنتشر ممارسة جديدة لبينية ثقافية ميممة شطر مستقبل قوامه الاختلافات المتضامنة ، وفي حضوركم اليوم بعاصمة الجزائر، يحلو لي أن المس بادرة من هذا المستقبل.

أتمنى لكم تمام التوفيق في أعمالكم.